منابع النيل

حسب عقيدة قدماء المصريين والآراء الحديثة

لأنطون زكري

— ٣ —

بحث العالم القديم والحديث في منابع النيل

فوق المزايا العلمية والصناعية التي امتازت بها مصر في قرونها الأولى قرون العظمة والإسعاد والتفوّق الباهر على سائر الأمم، خصّ الله هذا الإقليم بالنيل المبارك، وهو أكبر المنن الإلهية التي جعلت كافة مواهب البشر أمامها لا تكاد أن تكون شيئاً مذكوراً. فالنيل هو ينبوع الحياة، ومهد الارتقاء، ووسيلة الحياة الخالدة، ورغد العيش المزيد. فكلما أمعن الباحثون في التفكير بما تقله أرض مصر من العجائب الصناعية، والهياكل والآثار والمباني التي قاومت العصور ظاهرة فوق بعض المواطن، وتحت بطون الأرض وفي غيرها، يرتد إليهم صدى مجهوداتهم الفكرية حائراً ذاهلاً، كلما رأى النيل يتماوج بأعاجيب المناظر، ويتدفق في مجاريه بأوفر الخيرات، على بلاد أسعدتها الطبيعة بأن يفيض عليها من كنوزه وخيراته، ما جعلها تمتاز بسمة الخصب وقوّة النماء. وإن أهاليها كلما جدّوا في الأعمال الزراعية، جادت عليهم بأضعاف ما كانوا يتمنون في مبادىء أعمالهم، فيلحّون على الدوام الى التوسع في استخدامها، بقدر ما تشجعهم عليه سعة الآمال، فلا تضنّ الأرض بما استودعت من المزايا، ولا تكل السواعد ولا الهمم عن اجتناء أطيب الثمرات، واحراز الأرباح الوافرة. وهكذا كان المصري وبلاده في دور نشأته الأولى وسعادتها الماضية كل على صاحبه يجود بأقصى المنح، فتتجدد الأراضي زينتها النباتية، وتتنوّع لأقوام الشعب موارد ثروتهم المالية.

كانت مصر بهذا الاعتبار مصدراً للمعجزات العقلية، لأنّ خصائصها الشهيرة، ومميزاتها المدهشة، لم تجتمع في غيرها من الأقاليم، وكفى أنّ منابع النيل وأدوار فيضه وتطوّرات انتقاصه واستمرار مجاريه على حالة لا تعوقها الرواسب، ولا كثبان الرمال، التي تذروها الرياح في المناطق، قد جعلت ألباب الباحثين حيارى. وطالما تاق الأقدمين الوصول الى

حل مسألته العويصة ، ولكنهم وقفوا أمام أقاويل وآراء كل فريق يدلي فيها بحجته التي يؤيد بها رأيه في رأي مناظريه ، واستمدت بالتوم العصور الخالية ... في هذه النقطة الى تمحيص نهائي يرفع النقاب ويزيل الشكوك .

ورُوي في عصر « ذيتون » الخرافي رواية أشبه بالخيال منها بالحقيقة ، إذ قيل فيها إن النيل كأنه لما رأى قرب الشمس من الارض خشي من احتراقه بلهيبها ، فأخفى رأسه في آخر الكرة الارضية . والى القرن السابع عشر ق . م لم تصل مباحث المؤرخين الى رأي سديد في حقيقة منابعه ومبادئها .

وقد أفرغ الفراعنة مثل سيزوستريس (رعمسيس الثاني) وغيرهم جهداً كبيراً من عنايتهم للوقوف على حقيقة الينابيع لما استطاعوا . ولما قدم الى مصر هيرودوت ، وابتدأ مباحثه عن الينابيع لم يرشده أحد ، وذكر أن بسامتيك (رقم ١٠) أحد ملوك الاسرة ٢٦ ، ألف بعثة مكوّنة من (٢٤٠٫٠٠٠) مائتين وأربعين ألف رجل ، وأمدّها بكل ما تحتاجه لتسهيل العقبات في سيرها والوسائل الفنائية الاخرى في نقل الاحمال والمؤن

١٠ – رسم بسامتيك الاول وتحته اسمه بالهيروغليفي

والوسائل الدفاعية إذا صادفها شيء من ذلك ، وترتيب وصول المعلومات منها إليه عن الأقاليم التي تجتازها ، والمناظر التي احتمت إليها ، وعجائب الاودية والقبائل ، وأمدّها بسعة الاغداق والمعونات الكبرى لتتغلب بالبذخ والسخاء والمعدات الكثيرة على انجاح مأموريتها ، فقضت فيها بعض السنين ، وعادت من حيث أتت ، ولم تدون غير اكتشافات جغرافية عن بعض المواقع في تلك المجاهل ، ثم استحكمت هذه الفكرة لدى اسكندر المقدوني وقمبيز ، ورتب كل منهما في عهده رحلة خاصة ، وأمدّها بأساليب أقرب في الوصول الى الغاية المطلوبة ، وأسهل منالاً في الاستكشافات والتوسع في المعلومات ، فعادت كباقي البعثات الماضية راضية من الغنيمة بالإياب .

وفي القرن الثالث ق . م . في عهد بطليموس إفرجت ، تكلم المؤرخون عن منابع النيل ، فكانت آراؤهم متطابقة مع المعنى الذي أورده الشاعر الروماني في كتابه المعروف « بالفرساي » (Versailles) على لسان بوليوس قيصر أن النيل يخفي رأسه عن الأنظار كصنم لا تبرح عن دلائله محيا أطال إليها المشرق الضراعة والاستعطاف ، فالنيل يستمر في جاريه فياضاً متدفقاً بينما أفكار الباحثين تكدّ وتجهد وترتد بالملل والضعف .

وفي القرن الأول ق . م . أبدى « جوبا » ملك « موريتانيا » رأيه في منابع النيل ، وتبعه فيه « بلين وميلا والمؤرخ ديون كاسيوس » وهو أن منابع النيل المتامية تنبعث تحت الصخور والتجاويف العميقة بتلك الأودية والوهاد ، لا يستطيع أفراد البعثات التي تنتدب من أجله خوض غمار تلك المياه . وفي هذه المنابع الفجوات التي تتفاوت بين الضيق والسعة والمنعطفات الطويلة ولا تستطيع إلاّ إذا تطوّعت بحياتها للخطر الذي لا يحتمل معه عود بعض أفرادها لينبيء الباقين عما رأت عيناه ، ووعته ذاكرته من هذه المناظر وعجائب تكوينها .

وقال بطليموس الجغرافي المولود في القرن الثاني ب . م . إن منابع النيل تتلقى في بحيرتين كبيرتين بأنحاء خط الاستواء . ولا يستطيع الغرباء التجول في ما وراءه ، لأن الأذهان ممتلئة بالروايات المنتشرة عن وجود الوحوش والحيوانات الضارية التي تفتك بكل من أراد المسير في غاباتها أو مغاورها .

جاء العرب بعد اليونان خلفاء لهم في الاستعمار ، وحكموا مصر واستولوا على بلاد النوبة وغيرها من البلاد المجاورة لمنابع النيل ، وأحكموا صلاتهم التجارية والسياسية مع السودان وشعوب أفريقيا الجنوبية ، واتخذوا هذه التمهيدات وسيلة لوصولهم الى ما عجز عنه أسلافهم في تلك الأقاليم المجهولة .

ومن مشاهير العرب الأجلاء الذين صرفوا وقتاً مديداً ، وعزماً صادقاً ، في الوقوف على معلومات صحيحة بشأن منابع النيل الامام الشهير أحمد بن محمد بن عبد السلام المنوفي نسبةً الى منوف في نهاية القرن التاسع الهجري . وكان اماماً في العلوم الاسلامية ، وتواريخ الأمم ، احترمه كثير من العلماء ، وأئمة البحث ، وعظماء الشعوب ، ونقلوا عنه في مؤلفاتهم . وكان يثبت لتلامذته أن العلم الصحيح والتقوى توأمان ، فمن لم يزدد عقله بقوة الايمان ، الذي هو فوق نواميس الطبيعة ، يكون دائماً في تردد الحيرة والضلال . دوّن هذا المؤلف الشهير كتاباً عنوانه « الفيض الجديد في أخبار النيل السعيد » ، وتوجد منه نسختان خطيّتان ، إحداهما في دار كتب مرسيليا والثانية في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، تكلم فيه عن منابع النيل وأصله واستمداده وطوله وعرضه .

ثم جاء نابليون مصر مع بعثة علمية بحثت في أحوال البلاد وأمورها ، ودوّنت عنها مؤلفات كثيرة ، ولكنها لم توفّق للبحث عن منابع النيل .

وفي سنة ١٨١٩ أرسل محمد علي باشا بعثته العلمية الشهيرة برأسها « جاليياردو » المهندس الفرنسي ، فسافر الى الخرطوم ، وقال في مذكرته إن منابع النيل تبتديء من جبال القمر .

وفي سنة ١٨٥٦ توسّع في الاستكشاف كل من الباحث « برتون وسبيك » بسبكر إلى ما خلف بحيرتي « فكتوريا والبرت نيانزا » وتحقق أخيراً أنهما أهم المنابع التي يتكوّن منها النيل ، وقد ساعدت الاكتشافات الأخيرة رجال اوروبا على التجوّل في أواسط أفريقيا ، واستطاعوا الوصول الى قول عزّزوه ببراهين الاكتشافات والرحلات المتوالية في هذه الاقطار ، وكلل النجاح سعيهم ، كانوا مصداقاً للمثل القائل بأن من لازم السير في الدرب وصل الى مرحلة النجاح .

— ٤ —

رأي العرب في منابع النيل

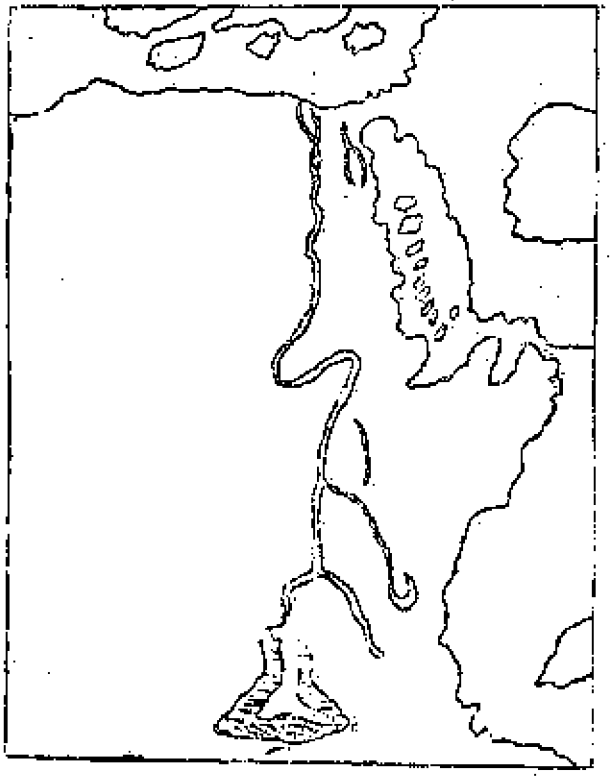

ونثبت هنا ما جاء في كتاب « الفيض الجديد في أخبار النيل السعيد » تأليف الشيخ احمد بن محمد بن عبد السلام المنوفي في ذكر منابع النيل

ذكر المؤرخون في أصل منبعه من مبتداه الى منتهاه أقوالاً ، فقال أكثرهم ومنهم الحافظ بن كثير في تاريخه الكبير أن مبتداه من الجبال القُمْر (بضم القاف وسكون الميم) أي البيض ، ومنهم من يقول « جبال القَمَر » (رقم ١١) (أي بفتح القاف) بالاضافة الى الكوكب وهي غربي الأرض وراء خط الاستواء في الجانب الجنوبي . ويقال إنها صخور تنبع من بينها عيون ثم تجتمع من عشرة مسيلات متباعدة ، ثم تجتمع كل خمسة منها في بحيرة ، ثم يخرج منها أنهار ستة ، ثم تجتمع كلها في بحيرة أخرى ، ثم

رقم ١١ — رسم مجرى النيل

حسب خريطة بطليموس المحفوظة بدير جبل اتوس

يخرج منها نهر واحد وهو النيل ، فيمر على بلاد السودان بالحبشة ، ثم على النوبة ومدينتها العظمى « دنقلة » ، ثم أعلى السودان ، ثم تظهر على ديار مصر ، ويحمل اليها من زيادات

رقم ١٢ — خريطة وادي النيل لبطليموس نقلاً عن الخوارزمي

أمطارها ، ويجرف من ترابها، وهي محتاجة إليها ، لأن مطرها قليل لايكفي زروعها وأشجارها، وتربتها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجيء النيل بزياداته وطينه ، فيلبث فيها ما يحتاجون إليه ، وهي من أحق الأرض دخولاً في قوله تعالى : « أوَلم يرَوا أنَّا نسوق الماء الى الأرض الجرز لنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » ثم يجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق فرقتين عند قرية على شاطئه يقال لها « شطنوف » وهي من عمل القليوبية ، فيمر الغربي منه على « رشيد » ويصب في البحر الملح ، وأما الشرقي فيفترق أيضاً عند جوجر فرقتين ؛ يمر الغربي منهما على دمياط من غربيها ، ويصب في البحر الملح، والشرقي منهما يمر على « أشمون » طناح ، فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط يقال لها بحيرة « تنيس وبحيرة دمياط ، وهذا يعد بعد عظيم من ابتدائه الى انتهائه ، ولهذا كان ألطف المياه .

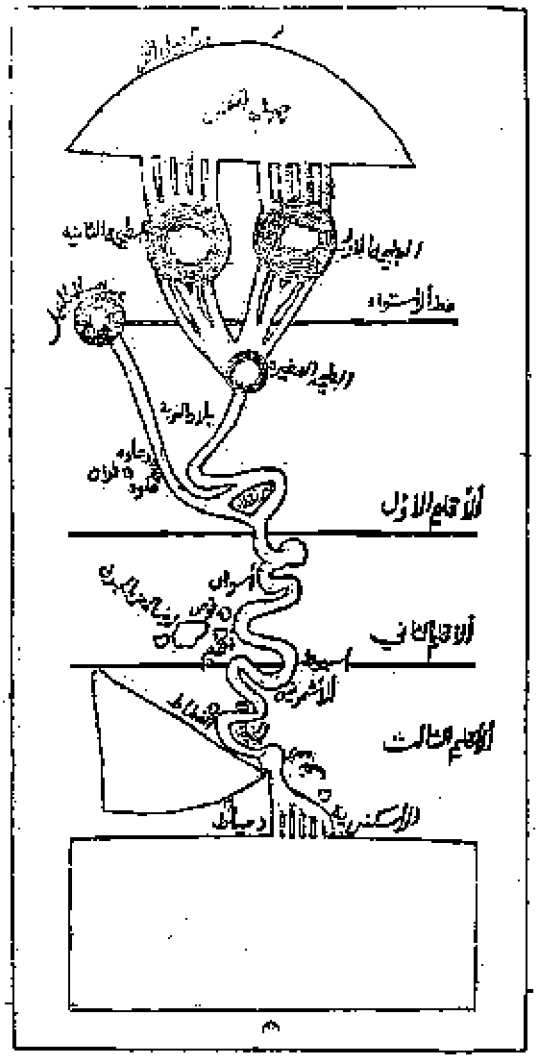

(وقال ابن الهيثم في كتاب الهدى) : النيل أحد أركان الجنة ، أصله من وراء جبال

القمر رقم (١٢) في أقصى بلاد الحبشة من أمطار تجتمع هناك، وسيول يجر بعضها بعضاً، فيسوقه الله تعالى الى الأرض الجرز التي لا نبات بها، فيخرج به زرعاً تأكل منه الأنعام والأنام. ولما كانت الأرض التي يسوقه سبحانه إليها ابليزاً صلبة، إن أمطرت مطر العادة لم ترو ولم تتهيأ للنبات، وإن أمطرت فوق العادة أضرّت الناس والمساكن، وعطلت المعائش والمصالح، فأمطر سبحانه البلاد البعيدة، ثم ساق تلك الأمطار الى هذه الأرض في نهر عظيم، وجعل سبحانه زيادته في أوقات معلومة على قدر ري البلاد وكفايتها. فاذا روى البلاد وغمرها أذن سبحانه بتناقصه وهبوطه لتتم المصلحة بالتمكن من الزرع.

وقال قدامة: « إن منبع النيل في بلاد القمر وراء خط الاستواء من عين تجري منها عشرة أنهار كل خمسة منها تصب في بطيحة في الاقليم الأول، ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل ».

قال صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، إن هذه البحيرة تسمى بحيرة « كوري » منسوبة الى طائفة من السودان يسكنون حولها متوحشين، يأكلون من وقع إليهم من الناس. ومن هذه البحيرة يخرج نهر النيل. وإذا خرج النيل منها يشق بلاد « كوري » ثم بلاد « قنة » طائفة من السودان أيضاً، وهم بين « كانم والنوبة » ثم يغوص في الرمال، ويمر تحت الأرض مكتوماً من الجنوب الى الشمال، ثم يظهر ببلاد النوبة فاذا بلغ مدينة « دنقلة » عطف من غربيها الى المغرب، وإنحدر الى الاقليم الثاني، فيكون على شاطئيه عمائر النوبة، وفيه جزائر لهم متسعة عامرة بالمدن والقرى، ثم يشرّق الى الجنادل، وإليها تنتهي مراكب النوبة إنحداراً، ومراكب الصعيد الأعلى صعوداً، وهناك أحجار لا تمر المراكب عليها إلاّ في أيام زيادة النيل، ثم يأخذ الى الشمال، فيكون على شرقيه مدينة اسوان من بلاد الصعيد الأعلى، ثم يمر بين جبلين هما مكتنفان لأعمال مصر أحدهما شرقي والآخر غربي حتى يأتي مدينة مصر وهي الفسطاط الذي بناه عمرو بن العاص فيكون على شرقيه، فاذا جاوزها انقسم كما تقدم، قلت أي في قوله، فيفترق فرقتين عند قرية على شاطئيه يقال لها « شطنوف » الى آخر ما ذكره.

[يتبع]